منـاقشـــات :

حول التأصيل الاجتماعي لأدبنا الحديث

عبدالنبي اصطيف

توخى الدكتور شكري عزيز الماضي في مداخلته المعنونة « نحو تأصيل اجتماعي لادبنا الحديث » (١) ، اثارة مجموعة اسئلة وتساؤلات « حول واقع الاشكال الادبية العربية الحديثة وعلاقتها بالمجتمع ، ومـا يتصل بهذه المسألة من قضايا نقدية » (ص ١٦٣) .

وهو في محاولته هذه ينطلق من افتراض ضمني فحواه ان الظاهرة الادبية العربية الحديثة تتمثل بشكل اساسي في الانواع الادبية الحديثة التي تسود الادب العربي المعاصر كالمسرحية والرواية والقصة القصـيرة والشعر الحديث . (ص ١٦٤) .

(١) انظر د. شكري عزيز الماضي ، « نحو تاصيل اجتماعي لادبنا الحديث » ، المعرفة (دمشق) ، السنة الثانية والعشرون ، العدد ٢٥٩ ، ايلول ، ١٩٨٢ ، ص . ص (١٦٣ ـ ١٧٢).وجميع الاشارات الواردة بين قوسين هيلارقام صفحات العددالمذكور.

واذ كان معنيا بالدعوة الى التاصيل الاجتماعي لادبنا العربي الحديث بمعنى ربط الانواع الادبية الجديدة « بحركة التحولات الاجتماعيـة في بلادنا » (ص ١٦٨) ، فانه يرفض ــ وعن حق ــ موقفين يسودان الساحة النقدية العربية يحاول كل منهما ان يفسر نشأة هذه الانواع باشارة احادية الى عوامل لا تمت بصلة الى واقع حال هذا الادب وسياقه الحاضر .

اما الاول فيرى ان هذه الانواع الادبية « أشكال ادبية مستوردة مـن الغرب » واما الثاني فانه يصر على أن معظم هذه الانواع الادبية ما هـو الا امتداد لاشكال أدبية قديمة اصبحت جزءا من تراثنا العربي (ص ١٦٥). وعلى حـين ينطلق « اصحاب الموقف الاول مـن رؤية تدعي العلميـة والموضوعية لكنها متأثرة بالغرب وحضارته وانجازاتـه العلمية والفكرية والادبية الى حد الانبهار » « ينطلق أصحاب الموقف الثاني (التراثيون) من هدف نبيل يتمثل في الحرص على الذات ، مع شيء من المباهاة والمفاخرة بتراثنا » . فما يعرفه الغرب من اشكال ادبية حديثة « عرفه اجدادنا منذ زمن طويل ، وادبنـا العربي القديم لا يخلو من تلك الاشكال الحديثـة الغربيـــة » .

ويقدم الدكتور الماضي جملة أسباب ــ اغلبها وجيه ــ لهذا الرفض ، ربما كان من أهمها أن الموقفين يغفلان الحاضر (ص ١٦٦) . وعلى هذا فان قصورهما يفرض رؤية جديدة لنشأة ادبنا العربي الحديث « لا تنكـر أثر التراث أو اثر الغرب في تشكيل رؤية هذه الانواع الادبية وفكرهـا وفنها وحتى لغتها . وانما تجهد في ربط هذه الاشكال الادبية بحركـة التحولات الاجتماعية في بلادنا . وبعبارة اخرى ربما اكثر دقة نحن بحاجة الى تأصيل اجتماعي لادبنا العربي الحديث » (ص ١٦٧ ــ ١٦٨) .

وبروح متفائلة حقا يأمل ، بل يحسب ، أن « هذه المهمة ستقضي على مظاهر الفوضى التي تعانيها حركتنا الادبية والنقدية . ذلك ان التاصيل

الاجتماعي سيحدد وظيفة هذه الاشكال الادبية بشكل أكثر دقة وهذه بدورها ستحدد ماهية هذه الاشكال ، اي خصائصها الخاصة (كذا) » (ص ١٦٨) .

وبينما يحاول التأكيد على الخلفيات الاجتماعية للظاهرة الادبية العربية الحديثة ، فانه من جهة اخرى يود ان « نبدأ بالنص الادبي لا بالاطار الاجتماعي » (ص ١٦٩) ، وهذا يقوده الى التساؤل عن كيفية تناول النص الادبي ، اذ انه غير راض بشكل عام عن اشكال الممارسة النقدية العربية المعاصرة وتوجهاتها . من هنا كانت هذه الدعوة الحارة « لتأصيل اجتماعي لادبنا الحديث ، لايجاد معايير مستنبطة من النصوص الادبية المحلية تساهم في خلق حركة نقدية متضافرة (لا تابعة ولا هشة) معحركة الابداع الادبي » (ص ١٧٢) .

* * *

والواقع ان قارىء الدكتور الماضي لا يسعه الا ان يتعاطف مع همومه ودعوته واحتجاجاته . فهي صادقة لا محالة ، مخلصة دون شك ، جادة غاية الجد ، وحسبك فيها حرارتها ، ومسحة الهاجس فيها . الا انه من جهة اخرى ــ وربما استجابة لرغبة الدكتور الماضي نفسه الذي اراد مداخلته اثارة للقضية ــ لا يمكنه الا أن يتفحص مقولاته ويثير عددا من الاسئلة حولها .

واول هذه الاسئلة هو هذا الاعتقاد الضمني بأن الادب العربي الحديث ، او الظاهرة الادبية الحديثة في المجتمع العربي تتمثل في هذه الاشكال الحديثة (المسرحية ، الرواية ، القصة القصيرة والشعر الحديث) ، وهو افتراض يثير إشكال **طبيعة هذه الانواع الادبية** ، وفيما اذا كانت الظاهرة الادبية الحديثة **هي مجرد وجود هذه الاشكال المباينة للاشكال الادبية السائدة في الادب العربي الكلاسي** .

فهل هذه « الاشكال » هي مجرد اشكال ، **ام انها تجسيد لحساسية فنية ونفسية جديدة ، ولتجربة جديثة متميزة** ؟ واذا كانت طبيعة هـذه الاشكال متصلة بوظيفتها الراسخة في المجتمع الحديث ، فما هي الصلة بين شخصية هذه الاشكال والوظيفة التي تؤديها في هذا المجتمع ؟

لقد احتفظت « هنا بمصطلح الدكتور الماضي (الاشكال) رغم اني أتحدث عما ينبغي أن يندرج تحت مصطلح الانـواع الادبيـة Literary Kinds (وهو مصطلح يستخدمه الدكتور الماضي احيانا)، او الاجناس الادبيـة Literary Genres ، وذلك حتى أسهل على القارىء متابعة النقاش ، ولأبين كيف أن حرارة دعوته قد أوقعته في استخدام مصطلح غير دقيق ولا واضح . وهو امر يسود اغلب الكتابات النقديـة العربية المعاصـرة .

وثمة امر آخر وهو انه **اذا كان الادب راسيا في عمق المجتمع الذي انتجه فكيف كان للمجتمع العربي الحديث أن ينتج هـذه « الاشكال » بأعرافها وقوانينها وحدودها ووشائجها الداخلية المميزة**.؟ وما هي الصلة بين الصور العربية لهذه « الاشكال » وبين الصور الام في الادب الاوربي ؟ ترى هل المجتمع العربي الحديث مجرد تابع للمجتمع الاوروبي الذي انتج هذه « الاشكال » في البداية ؟

ان حل هذا الاشكال لا يزال مرهونا بشرح طبيعة العلاقة التي اقامها الادب العربي الحديث مع الآداب الاجنبية بشكل عام والاوربية منها على نحو خاص . وبالطبع فان دراسة هذه العلاقة ينبغي ان تتم من خلال دراسة السياق العام للعلاقات العربية الاوربية منذ القرن الثامن عشر ، مثلما يجب ان تقوم على فهم واعٍ لطبيعة الظاهرة الادبية الاوربية وصلتها بالفكر والمجتمع الاوربيين ولظروف الاحتكاك العربي بهـذه الظاهـرة واشكاله ، ثم للتحولات التي خضعت لها الظاهرة نفسها على يد منتجي

الادب العربي الحديث ، ولعلاقة هــذه التحولات بالظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادبية السائدة في الوطن العربي في القرون الثلاثة الماضية .

وبالطبع فان هذه المهمة لا يستطيع ان ينهض بها الا الادب المقارن الذي لا يزال يحبو في الوطن العربي ، وما زال دعاته لا يظفرون بالتشجيع او التسهيلات الضرورية للقيام بمهمتهم .

* * *

لا شك ان الدكتور الماضي محق في رفضه للموقفين السائدين في شرح نشأة الظاهرة الادبية الحديثة ، فهما دون شك غير كافيين ، والظاهرة الادبية العربية الحديثة اشد تعقيدا من ان تشرح بمجرد اشارة وحيدة الجانب لهذا العامل او ذاك . **وهذا ينطبق على دعوته ايضا . فالتاصيل الاجتماعي للادب العربي الحديث يوضح جانبا هاما من جوانب هــذه الظاهرة وهو علاقتها بشروط المجتمع الذي انتجها ودورها في تغيير هذه الشروط** ، او بعبارة اخرى **تفاعلها مع هذا المجتمع . ولكن ذلك لن يكفي وحده لفهم هذه الظاهرة وهو بالتاكيد لن يستطيع ان يستوعب جميع جوانبها** . فهو يهمل **عامل الفروق الفردية بين منتجيها مثلما يهمل تكوينهم الثقافي ودور التقاليد الثقافية والادبية في عملية الانتاج الادبي** . اذ ان هذه التقاليد تتمتع بقوانينها وأعرافها ونظمها الخاصة رغم صلتهــا بالبنية الكلية للمجتمع الذي انتجها . واهم من ذلك انه يغضي الطرف **عن دور اللغة** الذي هو ابعد من أن يكون مقتصرا على كونها مجرد وعاء للتجربة الادبية ، لان لها تصيُّتها التي تحاول باستمرار ان تقمع صوت مستخدمها وتحد من حريته وتخفق شخصيته . وهو دور تحاول الآن الدراسات المتعلقة بتحليل الانشاء Discourse Analysis ان تشرحه وتبين اهميته .

* * *

والواقع انه رغم تفهم المرء لهذا الالحاح على اجتماعية الظاهرة الادبية، الا انه لا يمكنه اغفال حقيقة هامة هي ان **الظاهرة الادبية هي قبل كل شيء انشاء Discourse قوامه اللغة الطبيعية** . وربما كان اقتناع الدكتور الماضي بهذا هو الذي قاده الى التشديد على ضرورة البـدء من النص الادبي . وهو تشديد إن دل على شيء فانما يدل على جديـة محاولته ونفاذ رؤيته .

ولا شك ان الخلاف حول طبيعة الادب ووظيفته لن ينتهي ، ولكن ليس ثمة من يماري في أن الادب هو انشاء أو نص Text ، وأن اي نظرية في الادب لا يمكن أن تطمح في الوصول الى نتائج ذات جدوى ما لم تاخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار الاول .

ومعنى هذا ان اية نظرية ادبية تسعى الى صياغة مفهوم معين لطبيعة الادب ووظيفته وحدوده ينبغي ان تقوم أساسا على محاولة واعية لفهم عملية انتاج هذا الانشاء او النص وصلتها بباقي عمليات الانتاج الاخرى في المجتمع ، ووجوه مشابهتها ومباينتها لها .وهو أمر يشير اليه الدكتور الماضي اشارة متخبطة عندما يقول « ان الادب انتاج ، ليس بالمعنى الذي يذهب اليه علم اجتماع الادب ، وانما بالمعنى الذي يرى ان النصوص الادبية اعمال مرتبطة بالفعل البشري ابداعا ومادة وتلقيا » ، (ص ١٦٤) دون أن **يشرح الفرق بين المعنيين أو يبين عن مصدره .**

ولما كان الانشاء او النص انتاجا فمن الضرورة بمكان محاولة الوقوع على عناصره ، والمواد المشكلة لنسيجه حتى تسهل عملية تحديد طبيعته المتميزة وبالتالي وظيفته وحدوده التي ترتبط أساسا بهذه الطبيعة . وربما كان من الاهمية بمكان أن يؤكد المرء على ان هذا **الانشاء أو النص ليس مجردا عن الدلالة ، ولهذا فانه يمكن الحديث عن الادب من خلال تصور سيمائي ينظر له على انه نظام من العلامات « Sign System »**

يحمل دلالة معينة او معنى . وهكذا تصبح الغاية من اية نظرية للادب البحث عن قوانين وأعراف وسبل انتاج هذا المعنى او هـذه الدلالة .
ولا يعني هذا بحال عزل الادب عن المجتمع الانساني الذي ينتجه ، لان **نظام العلامات الذي يشكل الادب مرتبط بنظم علامات اخرى في المجتمع تحمل بدورها دلالاتها الخاصة بها .**

ان فهما كهذا للادب يكفل من جهة الحفاظ على هوية الادب وطبيعته ، لانه يربطه بنظام من العلامات خاص به ، ويكفل من جهة اخرى الحفاظ على علاقاته بالظواهر الاجتماعية الاخرى من خلال العلاقات التي يقيمها هذا النظام مع الانظمة الاخرى .

واذ كان هذا النظام نظام علاقات بين علامات يحدد طبيعة تكوينها الرئيسيين (الدال **Signifier** والمدلول **Signified**) ونوعية علاقاتهما الظرف التاريخي للمجتمع الذي ينتج هذا النظام ، فان معنى ذلك أن نظرية للادب تقوم على اساس هذا المنظور السيمائي تتمتع بخصائص هامة هي :

(١) **التماسك .**

(٢) **والاتساق .**

(٣) **والتطور الدائم .**

وبمعنى آخر ، انه يتيح فهما اكثر استيعابا لمختلف جوانب الظاهرة الادبية العربية الحديثة التي لا سبيل الى فهمها من خلال نظرة احادية الجانب لا تهتم الا بنوع معين من العوامل المشكلة لهذه الظاهرة .

★ ★ ★

واضافة الى ذلك فان هذا المنظور السيمائي يساعد على حل اشكال كيفية مواجهة النص الادبي أو تناوله ، والتي يغلب عليها في الممارسة

النقدية « الانطباعية والاقتطافية والتجريبية والاسقاطات الايديولوجية الآلية الميكانيكية » (ص ١٧٠) على حد تعبير الدكتور الماضي .

فاذا كانت **طبيعة المادة المدروسة في ميدان الانسانيات هي التي تحدد على وجه الاجمال الطريقة الامثل والاكثر جدوى لمباشرتها وتناولها** ، فان أي منهج مرشح للقيام بهذه المهمة ينبغي ، أو يفترض فيه ، أن يستوعب **الخصائص الرئيسية لهذه المادة ويعللها ، ويبين عن دلالاتها ، ويكشف عن وثاقة علاقاتها بالحياة الانسانية بشكل عام ، ويموضعها في البنية الكلية للمجتمع الذي انتجها .**

ولما كان الادب :

(١) انشاء قوامه اللغة الطبيعية التي ربما كانت من ارقى نظم العلامات التي استحدثها الانسان ؛

(٢) انشاء اجتماعيا يتم ضمن بنية اجتماعية ، ويجسد صلات وعي وايديولوجية ودور وطبقة ؛

(٣) انشاء محكوما بسياق يحدد دلالته ؛

(٤) انشاء هو انتاج انساني في الاساس ؛

فان أي منهج يحاول تناول الانشاء العربي الحديث ينبغي ان يأخذهذه هذه الامور بعين الاعتبار .

وكذلك فان أي دارس للادب العربي الحديث يستطيع ان يتبين بسهولة ان هذا الادب قدشهد انفتاحا كبيرا على الآداب الاجنبية ، لم يسبق للادب العربي عامة أن شهده الا في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، أو ما يسمى **بالعصر الذهبي** للثقافة العربية الكلاسية .

ان هذه الصلة التي اقامها هذا الادب مع غيره من الآداب قد مارست تأثيرا لا يمكن انكاره على حساسية منتجه النفسية والفنية ، وعلى أدوات

تعبيره الفنية وحتى على لغته ، وبالتالي فانها قد ساهمت في تشكيل رؤيته للعالم وفي تلوين منظوره للاشياء التي من حوله ، بل اننا **لا نبعد عن الحقيقة ان زعمنا ان دور هذه الصلة يشبه الى حد بعيد دور العامل المساعد في التجربة الكيميائية** ، فلا ريب أنه لولا هذا الدور لما حدث التحول الذي طرا على الادب العربي الحديث وبالصورة التي اتخذها . وكذلك فان المرء لا يدري كيف كان يمكن لأجناس ادبية مستحدثة (كالرواية والمسرحية والقصة القصيرة ...) ان تأخذ طريقها الى هذا الادب لولا هذا الانفتاح . ولا اظن أن هناك من يمكن أن يحاج اليوم أن هذه الاجناس الادبية قد اتاحها لنا اتصالنا بالآداب الغربية في القرنين الاخيرين وضمن ظروف معينة ساعدت على نقلها ثم تمثلها واستخدامها بفاعلية واصالة من قبل الادباء العرب وخاصة في العقود الثلاثة الاخيرة .

ومعنى هذا ان المنهج الذي يسعى لتناول الظاهرة العربية الحديثة ينبغي ان يعير هذا البعد الشيق من ابعاد الانشاء العربي الحديث ، والعامل الهام من عوامل انتاجه ، الاهتمام الجدير به .

* * *

من هنا يبدو لي ان **المنهج السياقي ـ المقارن ((Contextual Comparative)) ربما كان مرشحا اكثر من غيره للقيام بمهمة دراسة الظاهرة الادبية الحديثة في المجتمع العربي .**

فهو من خلال **الجانب السياقي فيه يستطيع ان يستوعب جملة التطورات الداخلية التي مر بها الوطن العربي والتي كان لها تاثير حاسم على تشكيل الانشاء العربي الحديث ، او الظاهرة الادبية الحديثة ، مثلما يستطيع ان يشرح من خلال الجانب المقارن فيه الدور الذي قامت به المؤثرات الاجنبية ، والاوربية منها على نحو خاص ، في حفز الكثير من التطورات والتغيرات التي مر بها هذا الانشاء .**

وبعبارة اخرى ان هذا المنهج قادر على اخذ البعدين الداخلي والخارجي لهذا الانشاء بعين الاعتبار ، وعلى التنبه لدور العناصر الداخلية (التي تشمل التراث القديم بالطبع) والعناصر الخارجية المكونة له .

وهو في محاولته موضعة النص الادبي في سياق اوسع (ادبي وغير ادبي) ربما كان أكثر قدرة على الكشف عن جملة دلالاته من التأصيل الاجتماعي لـه .

جامعة اكسفورد

☆ ☆ ☆